الاضطرابات في العراق

أ- حركات الخوارج:

إذا كانت بلاد الشام قد رفعت راية العصيان ضد حكم مروان الثاني، فطبيعي أن تقوم في العراق حركات أشد خطراً، خاصة وأنه الإقليم الأكثر تشنجاً من الحكم الأموي، منذ أن أصبحت بلاد الشام مركز السلطان. واشتهر العراق بأنه مركز الشيعة والحركة الخوارجية، وتستعر في نفوس أهله عصبية إقليمية غدت بموجبها الهوية العراقية، منطلقاً لتطرف لا حدود له ضد كل نزعة شامية.

ووجد الخوارج في تصدع بني أمية فرصة للانتفاضة على الحكم الأموي، وتوجيه ضربة قاسية إلى مروان الثاني قد تنهي حكم أسرة طالما مقتوها وأرادوا التخلص منها، وتميزت حركتهم، في هذه الفترة، بالشمولية. فبعد أن كانت قلة العدد طابع جيوشهم، أضحوا الآن يقاتلون بأعداد جماهيرية كبيرة.

وتعددت حركاتهم بعد مقتل الخليفة الوليد الثاني في عام (١٢٦ هـ/ ٧٤٤م) كان مسرحها العراق وشبه الجزيرة العربية، حيث دخلوا الكوفة، واستولوا على البصرة، وعلى حضر موت، إلا أن مروان تصدى لهم وهزمهم في أكثر من معركة في نواحي كفرتوثا، من أعمال ماردين، وفي عين التمر، وفي جيرفت، وفي وادي القرى، شمالي الشام، وتغلب عليهم وأجلاهم عن العراق، واستعاد سيطرته على الحجاز واليمن.

ب- الحركات العلوية:

تزعم عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر آخر حركة قام بها الشيعة ضد الدولة الأموية، وانضم إليه شيعة الكوفة وبايعوه بالخلافة، وخرج في (شهر محرم من عام ١٢٧ هـ/ شهر تشرين الأول عام ٧٤٤م) لقتال أهل الشام في الحيرة.

ويبدو أن الشيعة خذلوه عندما نشب القتال، وفروا من أرض المعركة، ولم يثبت معه سوى ربيعة الزيدية، فاضطر للتراجع إلى الكوفة، وتبعه الأمويون. وشهدت شوارع المدينة مجابهات عنيفة بين الطرفين. وتمكن الجيش من السيطرة على الموقف ومنحة الوالي الأموي، عبد الله بن معاوية الأمان والإذن بالانسحاب، فارتحل إلى فارس حيث أعاد تنظيم صفوف قواته. وقوي أمره بما انضم إليه من الموالي والعبيد والعباسيين الثائرين على الحكم الأموي والأمويين الناقمين على مروان الثاني، وكل طامع في عطية أو وظيفة، وبقايا الخوارج الذين طردهم مروان الثاني من الموصل.

ويبدو أن هذا الحشد الذي التفت حوله كان غير متجانس. وواضح أن هدفه تشكيل جبهة مقاومة لا يجمعها إلا العداء لمروان الثاني. لذلك لم يتم له الاستمرار طويلاً، وسرعان ما انفرط عقده على إثر الهزيمة القاسية التي مني بها أمام قوات مروان الثاني عند مرو الشاذان في نهاية عام (١٢٩ هـ/ ٧٤٧م).

وانهارت آمال عبد الله وتطلعاته وفر إلى سجستان وبلغ هراة آملاً أن يجد نصيراً في أبي مسلم، لكن هذا الأخير قبض عليه وقتله.

الحركات الأموية الداخلية

حركة عبد الله بن عمر بن عبد العزيز:

يبدو أن الفوضى التي آلت إليها أوضاع الأسرة الأموية حركت المطامع في نفوس أفرادها، ووجد كل منهم نفسه صاحب حق في هذا الأمر.

كان عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والياً على العراق ومركزه الكوفة. والراجح أنه كان ذا نزعات استقلالية، إذ بعد تغلبه على عبد الله بن معاوية، أضحى له من السلطان والقوة ما بدا له أن باستطاعته الانتفاضة على حكم مروان الثاني. فنقض بيعته له، وقد اعتمد في تحركه على القبائل اليمنية، من أهل الشام المقيمين في الكوفة والحيرة الذين ساءهم خضوع الشام للنفوذ القيسي.

لم يُعر مروان الثاني هذه الانتفاضة التفاتة جدية، في بادئ الأمر، فترك عبد الله بن عمر وشأنه لاعتقاده بأنه لا يشكل خطراً كبيراً على وضعه، ولكن حين بدا له أن مطامع واليه السابق على العراق قد وصلت إلى حد الخطر بما توافر له من القوة والمنعة، والنية في التوسع، قام لمواجهته، وبعث إليه بجيش من الشام بقيادة النضر بن سعيد الحرشي، أحد رجالات قيس المشهورين، فاصطدم به، ودارت بين القوتين معارك هي إلى المناوشات الخفيفة أقرب، لم تؤد إلى نتيجة حاسمة وظل الفريقان على هذه الحال حتى ظهرت مشكلة أكثر خطورة، تمثلت بالخوارج الذين برزوا مجدداً على مسرح الأحداث في العراق، وانهمك مروان الثاني في التصدي لهم. وترك أمر عبد الله بن عمر.

حركة سليمان بن هشام بن عبد الملك:

استهل سليمان حركته المضادة لمروان الثاني حين أرسله إبراهيم بن الوليد على رأس قوة عسكرية لوقف تقدمه عند عين الجر، إلا أنه خسر المعركة. ونقله مروان الثاني، بعد أن تسلم الحكم، إلى حران مع بعض وجوه بني أمية.، ولعله أراد أن يظهر لأهل الشام وحدة الصف الأموي، لكن العداوة كانت شديدة، ولم تنفع هذه التظاهرة برأب الصدع بدليل أنه عندما نشبت الثورة في العراق ضد حكمه انتدب الناس إلى المسير معه، وكان سليمان ممن خرج، فلما وصل إلى الرقة طلب من الخليفة أن يقيم أياماً ليتقوى ثم يلحق به فأذن له.

ويبدو أنه نسق مع القوة الشامية التي رافقته، فدعاه الجند إلى خلع مروان ومبايعته بالخلافة على أن يترأسهم لحربه بحجة أنه أرضى عند أهل الشام من مروان، فقبل عرضهم وخرج بأخوته وولده ومواليه وسار مع رجاله فاستولى على قنسرين.
وصادفت دعوته قبولا في دمشق واجتمع تحت رايته جند غفير، وعسكر في قرية قرب دمشق، ونفذ غارات على مؤخرة جيش الخليفة، فتصدى له هذا الأخير قرب قنسرين وانتصر عليه، وفر سليمان بن هشام مع من تبقى من جنده إلى حمص ثم إلى تدمر ومنها إلى الكوفة حيث انضم إلى حركة الضحاك الخارجي.

ولا شك بأن عصيان سليمان بن هشام، وانضمام فئات من أهل الشام إليه وقيام اضطرابات في بعض مدن الشام، كلها مؤشرات واضحة على الحالة المتردية التي آلت إليها وحدة الأسرة الأموية، وإلى خطورة هذا الصراع الذي استمر بين أفرادها بشكل لا يبرره سوى المطامع الشخصية.